

فى  
ذكرى المولد النبوى الشريف

المحاضرة التى ألقاها الأستاذ حسن كامل المطاوى

بدار الجمعية التعاونية للبترول

٢٤ مايو ١٩٦٩

## بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السادة الأعزاء

أحمد اليكم الله الذى أعزنا بالاسلام ، وجعلنا من أمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وأشكر السيد المهندس المفضل كمال قره إذ تفضل بدعوتى لالقاء محاضرة اليوم فأتاح لى فرصة لقاءكم والاجتماع بكم للتحديث فى ذكرى المولد النبوى الشرف ، ذلك المولد الذى كان فاتحة خير ورحمة للإنسانية عامة ، ولأهل الإيمان خاصة .

وإن أرواحنا نحن المؤمنين لتبتهج بكل حديث يتصل بحياة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه منة الله علينا ، ورحمته المهداه إلينا ، واجتماعنا فى ذكرى مولده المبارك فيه شكر لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد جاء فى الحديث القدسى : عبدى لم تشكرنى ما لم تشكر من أجريت النعمة لك على يديه ، وليس فى النعم الظاهرة والباطنة التى أسبغها الله علينا نعمة أعظم من نعمة الإيمان ، ونحن فى هذه المناسبة السعيدة نسبح بحمد ربنا إذ أرسله بالهدى ودين الحق وجعلنا مؤمنين من أمته ، وهى خير أمة أخرجت للناس ، ورضى الله عن الإمام البوصيرى إذ يقول :

بشرى لنا معشر الإسلام أن لنا من العناية ركنا غير منهدم  
لما دعا الله لطاعته بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم

أيها السادة الأعزاء

أطوى لكم القرون القهقرى ، وأنقل إليكم حديثاً جرى بين  
سيف ذى يزن ملك اليمن وبين عبد المطلب بن هاشم شيخ قريش وسيدهم  
وجد النبي صلى الله عليه وسلم لأبيه ، ثم اتبع ذلك بذكريات عزيزة  
تتصل بمولد صاحب الذكرى صلى الله عليه وسلم ونشأته إلى أن بعث  
رسولاً للناس كافة وعم نوره العالمين .

شرف الناس عامة وقريش خاصة :

ذهب عبد المطلب على رأس وفد من قريش إلى صنعاء لتهنئة ملك  
اليمن سيف بن ذى يزن بنصره على الحبشة ، فاحتفى سيف بن ذى يزن  
بعبد المطلب فأدنى مجلسه واختلى به وقال له :

يا عبد المطلب إنى مفض إليك من سر علمى ما لو كون غيرك لم أبح  
به ، ولكنى ريتك معدنه فأطلعتك عليه ، فليكن عندك مطويًا حتى  
يأذن الله فيه ، فإن الله بالغ أمره .

لإنى أجد فى الكتاب المكنون ، والعلم المخزون ، الذى اخترناه  
لأنفسنا ، واحتجبناه دون غيرنا ، خبرا عظيما ، وخطرا جسيما ، فيه  
اشرف لحياة للناس عامة ، ولرطك كافة ، ولك خاصة .

فقال عبد المطلب : أيها الملك مثلك سرّ وجرّ فما هو ؟ ، فداؤك هل الوبر زمرا بعد زمر .

قال الملك : إذا ولد بتهامة ، غلام به علامة ، بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة .

قال عبد المطلب : أبيت اللعن ، لقد أبت خير ما أب به وافد ، ولولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من بشارته إياي ما أزداد به سرورا .

قال ابن ذى يزن : هذا حينه الذى يولد فيه أو قد ولد ، إسمه محمد يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ، ولدناه مراراً أو الله باعثه جهارا ، وجاعل له منا أنصارا ، يعز بهم أوليائه ، ويذل بهم أعداءه ، ويضرب بهم الناس عن عرض ، ويستبيح بهم كرائم الأرض ، يكسر الأوثان ويخمد النيران ، يعبد الرحمن ، ويدحر الشيطان ، قوله فصل ، وحكمه عدل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله .

عبد المطلب يسجد شكرا :

وأضاف ابن ذى يزن قائلا : والبيت ذى الحجب ، إنك يا عبد المطلب جده غير كذب .

فخر عبد المطلب ساجدا ، فقال ابن ذى يزن : أرفع رأسك ، ثلج صدرك ، وعلا أمرك ، فهل أحسست شيئا مما ذكرت لك ؟  
تصديق البشرى :

فقال عبد المطلب : أيها الملك ، كان لى ابن ، وكنت به معجبا وعليه رفيقا ، فزوجته كريمة من كرائم قومه آمنة بنت وهب ، فجاءت بسلام سميته محمدا ، فمات أبوه وأمه ، وكفلته أنا وعمه .  
الوصية بالوليد السعيد :

فقال ابن ذى يزن : إن الذى قلت لك كما قلت ، فاحتفظ بابنك واحذر عليه اليهود ، فإنهم له أعداء ، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا ، وأطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فإنى لست آمن أن تدخل لهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة ، فيطلبون له الغوائل ، وينصبون له الحبائل ، فهم فاعلون أو أبناؤهم .

ولولا أنى اعلم أن الموت مجتاحى قبل مبعثه لسرت الناطق بخيلى ورجلى حتى أصير بيثرب دار مملكته ، فإنى أجد فى الكتاب الناطق ، والعلم السابق ، أن يثرب استحكام أمره وأهل نصرته وموضع قبره ، ولولا أنى أقيه الآفات . واحذر عليه العاهات لأعلنت على حداثة سنه أمره ، ولأوطأت أسنان العرب عقبة<sup>١</sup> . ولكنى صارف ذلك إليك عن غير تقصير بمن معك .

<sup>١</sup> اخضعت له أعداءه .

هبات الملك :

قال عبد المطلب : ثم أمر ابن ذى يزن لكل من كان معى بعشرة أعبد وعشر أماء وبمائة من الإبل وحلتين من البرود وبخمسائة أرتال من الذهب وعشر أرتال فضة وكرش<sup>١</sup> مملوء عنبرا .  
قالوا ، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك وقال له : إذا حال الحول فإئتني ، فمات ابن ذى يزن قبل أن يحول الحول .

السعادة الخالدة :

وقالوا : فكان عبد المطلب كثيرا ما يقول : يا معشر قريش لا يغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك وإن كثر ، فإنه إلى نفاذ ، ولكن ليغبطنى بما يبقى لى ولعقبى من بعدى ذكره وفخره وشرفه .  
فإذا قيل له : متى ذلك ؟ قال سيعلم ولو بعد حين .

عبد المطلب يرى عجا :

وكان عبد المطلب قد رأى من أمر حفيده عجا قبل أن يفضى إليه سيف ابن ذى يزن بسرره الذى تقدم ، فقد جاء فيما رواه ابن اسحاق .  
أن السيدة آمنة حين وضعته أرسلت إلى جده عبد المطلب ، فلما جاءها

<sup>١</sup> الكرش من الحيوان المجتر يقابل المعدة فى الانسان .

رأى سحابة قد ظللت حجرتها ، فجعل يمسح عينيه ويقول : أنا نائم  
 أم يقظان ؟ فلما فتحوا له الباب إذا المسك يفوح من حجرتها فاستخبرها ،  
 فقالت : يا أبا الحارث ولدك مولود له أمر عجب ، فذعر عبد المطلب  
 وقال أليس بشرا سويا ؟ فقالت : نعم ، ولكن سقط ساجدا ثم رفع  
 رأسه وسبابته إلى السماء ، قال عبد المطلب : دعيني أنظر إليه ، فلما دخل  
 أخذه إلى الكعبة ، وقام فشكر الله على إنعامه وعوده ودعاه له ، وأنشد  
 وهو يطوف به الكعبة .

الحمد لله الذى أعطانى هذا الغلام الطيب الأردان<sup>١</sup>  
 قد ساد فى المهد على الغلمان أعيذه بالبيت ذى الأركان  
 من حاسد مضطرب العيان حتى أراه بالغ البنيان  
 ويشير الإمام البوصيرى ، رضى الله عنه ، إلى رفع الرأس للسماء  
 فيقول فى همزيتة :

وتوالت بشرى الهواتف أن قد ولد المصطفى وحق الهناء  
 يوم نالت بوضعه أبنة وهب من فخار مالم تتله النساء  
 رافعا رأسه وفى ذلك الرفع إلى كل سؤدد إيماء  
 رافعا طرفه السماء ومرمى عين من شأنه العلو العلاء

<sup>١</sup> - الاردان واحدها ردن وهى الاكمام . وطيبها كناية عن طيب اخلاقه وكمالها . صلى الله عليه وسلم .

عبد المطلب يطعم أهل الحرم :

وذبح عبد المطلب الذبائح وأطعم أهل الحرم ، بل وسباع الطير ،  
ووحش الفلاة .

أهل مكة يستبشرون :

وكانت مكة حين استقبلت بشري المولد المبارك ما تزال تحتفل  
بفرحة نصرها على أهل الفيل ، فربطت بين ميلاده وذلك النصر العزيز  
وقد قال ابن عباس : إن المولد كان يوم الفيل ، وهو يوافق فجر يوم  
الاثنين ١٢ من ربيع الأول ( ٣ من إبريل ٥٧١ م ) .

وهز ذلك النصر الحاسم الذي تم لأهل مكة على عشرات الآلاف  
من الأعداء وجدان الشعراء فأنشدوا :

فتنكلوا عن بطن مكة إنها	كانت قديما لا يرام حريمها
سائل أمير الجيش عنها ما رأى	ولسوف ينبي الجاهلين عليمها
ستون ألفا لم يؤوبوا أرضهم	بل لم يعش بعد الإياب سقيمها

ويرحم الله أمير الشعراء " شوقي " إذ يقول في همزيتة :

يوم يتيه على الزمان صباحه	ومساؤه بمحمد وضاء
والآى تترى والخوارق جمّة	جبريل رواح بها غداء

وأبلغ من قول الشعراء قول الله تعالى فى سورة الفيل : " ألم تر  
كيف ربك بأصحاب الفيل \* ألم يجعل كيدهم فى تضليل \* وأرسل  
عليهم طيرا أبابيل \* ترميهم بججارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول " .



تسمية الوليد : وسمى الوليد " محمدا " ولم يفت قريشا أن تسأل شيخها عبد المطلب ،  
لم سمي حفيده محمدا على غير عادة آبائه الذين لم يكن ذلك الأسم شائعا  
بينهم ، فأجابهم عبد المطلب : أردت أن يكون محمودا فى الأرض وفى  
السماء .

سعد وحلم :

وقد إستقبل عبد المطلب " حليلة السعدية " حين جاءت تأخذ  
حفيده لترضعه فى بنى سعد ، حيث كانت شريفات قريش تدفن بأولادهن  
إلى البادية لتصح أجسادهم وتفصح ألسنتهم ، فقال لها : من أنت فقالت  
إمرأة من بنى سعد ، قال ما أسمك ؟ قالت : حليلة ، فتبسم وقال :  
نج نج ، سعد وحلم ، خصلتان فيهما خير الدهر وعز الأبد .

حليلة ونور الوليد :

وتحكى حليلة أنها حين وضعت يدها على صدر الوليد الرضيع ، تبسم  
ضاحكا وفتح عينيه ونظر إليها ، وخرج من عينيه نور حتى دخل خلال  
السماء ، قالت : وأنا أنظر إليه فقبلته بين عينيه وأعطيته ثدي الأيمن  
فأقبل عليه بما شاء من لبن ، فحولته إلى الأيسر فابى . وكانت تلك  
حاله بعد .

## بركات الوليد :

وأضاف حليلة تقول : فروى ، ثم روى أخوه ( أى من الرضاع ، وقد أعطته الثدي الأيسر ) ثم أخذته فما هو إلا أن جئت به رحلى وقام زوجى إلى شارفنا<sup>١</sup> من الليل فإذا بها حافل<sup>٢</sup> فحلب ماشرب وشربت حتى روينا ، وبتنا بخير ليلة ، فقال صاحبى ( زوجها ) : يا حليلة والله أنى لأراك قد أخذت نسمة مباركة ، ألم ترى ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه ، فلم يزل الله يزيدنا خيرا .

وكانت حليلة ترقص ذلك الوليد باركها وتقول :

يارب إذ أعطيته فابقه                      وأعله إلى العلا وأرقه  
وادحض أباطيل العدا بحقه

وحق لحليلة أن تقول ذلك بعد أن لمست بركته لما لا شبهة فيه ،  
فهى التى روت فقالت :

قدمنا منازل بنى سعد ولا أعلم أرضا من أرض الله أجذب منها ،  
فكانت غنمى تروح على حين قدمنا شباعا لبنا فنحلب ونشرب ، وما  
يحب انسان قطرة لبن ولا يجدها فى ضرع حتى كان الحاضر من قومنا

<sup>١</sup> - الشارف : الناقة المسنة .  
<sup>٢</sup> - أى : ممتلئة الضرع باللبن

يقول لرعايتهم ويلكم ألا تسرحون حيث يسرح راعى حليلة ؟  
 فيسرحون فى الشعب الذى يسرح فيه فتروح أغنامهم جياعا ما بها لبن  
 وتروح غنمى لبنا ، فلم يزل الله يرينا البركة ، ونتعرفها ببركته صلى الله  
 عليه وسلم .

كما قالت حليلة :

وألقى الله محبته فى القلوب حتى إن أحدهم إذ نزل به أذى فى جسده ، وأخذ  
 كفه صلى الله عليه وسلم فيضعها على موضع الأذى ، فيبرأ بأذن الله تعالى ،  
 ومن نزل به ضر فى عينيه مسح بكفه صلى الله عليه وسلم عليهما فيبرأ  
 بإذن الله سبحانه ، وكذلك إذا أعتل لهم بعير أو شاه أو فرس فيأخذون  
 بيده صلى الله عليه وسلم فيمرون بها على موضع الأذى منه أو على كله ،  
 فيبرأ بأذن الله عز وجل ، ولقد كان يمس ضرع الشاه للقوم فتحلب  
 غبوقا<sup>١</sup> وصبوحا<sup>٢</sup> .

قالت : وما على وجه الأرض شىء تأكله دابة ، وأنبت الله ببركته  
 صلى الله عليه وسلم العشب فأعشب الوادى .  
 وكانت الشيماء ، ويقال لها أيضا الشماء ( وهى أبنة مرضعته حليلة )

<sup>١</sup> - غبوق .. بوزن صبور ما يشرب بالعشى .

<sup>٢</sup> - صبوح بوزن صبور ما يشرب فى الصباح .

تحضن الوليد المبارك وترقصه وتقول :

هذا أخ لى لم تلده أمى  
فديته من مخمول<sup>١</sup> مع<sup>٢</sup>  
وليس من نسل أبى وعمى  
فأنمه اللهم فيما تنمى  
كما كانت تقول أيضا :

يا ربنا أبق أخى محمدا  
ثم أراه سيدا مسودا  
حتى أراه يافعا وأمردا  
وأكتب أعاديه معا والحسدا  
وأعطه عزا يدوم أبدا

السيدة خديجة تتاجر بأموالها :

ولئن كان عبد المطلب قد رأى عند ميلاد حفيده ما رأى ، وسمع  
عن شأنه من " سيف بن ذى يزن " ما سمع ، فان السيدة خديجة بنت خويلد  
ابن أسد بن عبد العزى بن قصى لم تكن تدري شيئا من الذى رأى  
أو سمع عبد المطلب ، ولم تكن تكشف ما خبأه لها القدر فى أستار  
غيبه من سعادة فى الدنيا والدين تأتيها على يد ذلك الوليد الذى غير الله  
به مجرى التاريخ .

وحين أشرقت على الدنيا أنوار ذلك الوليد كانت الفتاة " خديجة "

١ - مخول كريم الاخوال .  
٢ - معم كريم الاعمام .

حسناً فى سن الزواج ، وقد انضاف إلى حسنھا وجمالھا ، عراقة الحسب والنسب فتزوجت من " عتيق المخزومى " فمات تاركاً لها بنتاً ومالاً وتزوجت من بعده " أبا هالة التميمى " فمات وترك لها طفلين (هناك خلاف فى أيهما كان الزوج الأول ) .

ولم يدم زواج السيدة خديجة الحسنة إلا بضعة أعوام فعاشت ترعى بنيتها الصبية الأيتام ، متسلية بهم عن الزوجين اللذين فقدتهما واحداً بعد واحد ، ورأت ألا تدع مالها عاطلاً حتى لا ينفد فى نفقات المعيشة ، فتاجرت فيه وهى محتجبة فى بيتها ، فكانت تستأجر رجالاً يعملون فى التجارة لحسابها لقاء أجر فيكون لها ربح التجارة وللأجراء أجر العمل .

بحيرى الراهب وعلامات النبوة :

مات عبد المطلب الذى كان يكفل حفيده لمختار لأعظم رسالة فتولى كفالته عمه " أبو طالب " ، سيد البطحاء وعظيم المشيخة من قریش بعد عبد المطلب الذى أوصاه بالحفيد خيراً .

وبدافع تلك الوصية والاشفاق على ابن أخيه اليتيم الذى فقد أباه وهو حمل فى بطن أمه ، رعى أبو طالب ابن أخيه الشقيق صبياً ويافعا ، فسره أن يراه سريع النمو فى جسده وعقله ورشده ، فأزداد حباله ، وتعلقا به ، وأنسا بصحبته ، وحرصا على شعوه .

وذاث يوم تهيأ أبو طالب للسفر إلى الشام فى ركب للتجارة ، فتعلق به ابن أخيه الناشئ ، فرق له أبو طالب وقال : والله لأخرجن به معى ولا أفارقه أبدا .

فلما نزل الركب بصرى<sup>١</sup> من أرض الشام ، استضاف بحيرى الراهب ركب أبى طالب ، وأخذ يلحظ الناشئ المختار لحظا شديدا وينظر إلى أشياء من جسده كان بحيرى يجدها فى كتب الأقدمين من صفته ، حتى إذا فرغ الضيوف من طعامهم قال بحيرى للمختار : يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ، فقال المختار : لا تسألنى باللات والعزى ، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما .

فقال له بحيرى فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ، فقال سلنى عما بدا لك ، وكان الحوار بداية النجاح فى إختيار بحيرى للمختار :  
ثم استطرد بحيرى يسأله الأسئلة الآتية :  
أتحب العزلة ؟ قال نعم .  
أتلعب مع الغلمان كما يلعبون ؟ قال كلا .  
أترى فى نومك رؤى تصدق فى يقظتك ؟ قال نعم .

<sup>١</sup> - بصرى هى مدينة حوران . وقد فتحها المسلمون صلحا سنة ١٢ هجرية . وهى أول مدينة فتحت فى الشام .

وقد وافقت الإجابات كلها ما عند بحيرى من العلم ، فقال له أسمح أن أرى ما بين كتفيك ؟ فأجاب أفعل ما تريد ، فنظر بحيرى إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على صفته المكتوبة فى كتب الأولين ( وخاتم النبوة كان كالتفاحة أو بيضة الحمامة عند غضروف الكتف الأيسر وكان من العلامات التى يعرفه بها علماء الكتب السابقة ) .

ثم سأل بحيرى عمه أبا طالب : ما هذا الغلام منك ؟ قال إبنى ، قال له بحيرى : ما هو بابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا ، قال فإنه ابن أختى ، قال فما فعل أبوه ، قال مات وأمه حبلى به ، قال : صدقت فأرجع بابن أختيك إلى بلده وأحذر عليه اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ليبغنه شرا ، فإنه كائن لإبن أختيك هذا شأن عظيم نجده فى كتبنا وما روينا عن أبائنا ، فأسرع إلى بلاده .

فرجع أبو طالب بإبن أخيه سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام وازداد به عناية وله رعاية .

ولكن قدر الله أن يعصم حبيبه المختار من كيد الناس وشركهم ، فلا يستطيع أحد من اليهود أو غيرهم أن يصلوا إليه بسوء ، فشب صلى الله عليه وسلم يكلؤه الله بحفظه ويحميه بحمايته ، وتمت نعمته عليه ، فحلاه بأكمل الأخلاق وأصدق الحديث ، وأعظم الأمانة ، وأرجح العقل ، فلم يجتمع لواحد من شباب مكة ما اجتمع له من تلك الصالحات ، فاشتهر

بينهم بالصادق الأمين تمييزاً له عن سواه ، كما لقبته قريش بالزكى ، وبالظاهر النقى .

ويقول إمامنا على كرم الله وجهه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما هممت بقبيح مما هم به أهل الجاهلية حتى أكرمني الله بالنبوة ، إلا مرتين من الدهر كلتاهما عصمني الله عز وجل من فعلهما ، قلت لفتى كان معى من قريش بأعلى مكة فى غنم لأهله يرعاها : أبصر لى غنمى حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان ، قال نعم فلما جئت أدنى دار من مكة سمعت غناء وصوت دفوف ومزامير ، فقلت ما هذا ؟ قالوا فلان تزوج فلانة ، فلهوت بذلك الصوت حتى غلبنى النوم فنمت فما أيقظنى إلا مس الشمس .

فرجعت إلى صاحبى فقال ما فعلت فأخبرته ، ثم فعلت فى الليلة الأخرى مثل ذلك .

أبو طالب يقترح :

وما أن بلغ الصادق الأمين الخامسة والعشرين من عمره حتى تم له رشد الشيوخ ، وتجربة الحكماء ، وروية العقلاء ؛ وهو ما دعا أبو طالب أن يقول له : يا ابن أخى ، أنا رجل لا مال لى ، وقد أشدت الزمان علينا ، وألحت علينا سنون منكرة ، وليس لنا مال ولا تجارة ، وهذه غير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة تبعث رجالا من



قومك يتجرون فى مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتها لفضلك عن غيرك  
لما بلغها عنك من طهارتك وأمانتك وإن كنت أكره أن تأتى الشام  
وأخاف عليك يهود وقد بلغنى أن خديجة استأجرت رجلا بـكرين<sup>١</sup>  
ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته ، فهل لك فى أن أكلمها .  
فكان جواب البار الرشيد : ما أحببت يا عمى .

بين أبى طالب وخديجة :

فسار أبو طالب إلى خديجة وقال لها : هل لك يا خديجة أن  
تستأجرى محمدا ؟  
فأجابت من فورها المحظوظة المرزوقة التى سعى إليها رزق الدنيا  
والدين بعطاء من رب العالمين : لو سألت ذلك يا أبا طالب لبعيد بغيبض  
فعلنا ، فكيف وقد سألته للقريب الأمين  
وأرسلت خديجة إلى أمينها تستدعيه للخروج فى تجارتها وقالت له  
دعانى إلى البعثة إليك ما بلغنى من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم  
أخلاقك وسأعطيك ضعف ما أعطى رجلا آخر من قومك .  
فأخبر الأمين عمه أبا طالب بحديث خديجة فقال له عمه يا محمد هذا

<sup>١</sup> - جملين .

رزق قد ساقه الله إليك ، ولو كشف لأبى طالب ما أعدت الأقدار  
من سعادة الدنيا والدين لقال لابن أخيه : هذا رزق قد ساقه الله لخديجة  
وسعادة أبدية طويت لها من وراء حجب الغيب

وتهيات عير قریش للرحيل ألى الشام ومعهم أمين خديجة وغلماها  
ميسرة وكأنما الأقدار تكشف لخديجة عما تنتهى به الرحلة من رزق  
ميسر تقابله بحمد الله والثناء عليه ، وما ظنك برحلة طيبة تجمع لخديجة  
بين محمد أمينا متبوعا وميسرة خادما تابعا ، حمد ويسر كانا بداية بشرى  
للدنيا تتلونها بشرى للدين وما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا .

إجتازت القافلة الطريق الذى كان الأمين قد اجتازه فى رحلته مع عمه  
حتى أتت القافلة بصرى ، فباع أهل القافلة واشتروا ، وقايضوا  
واستبدلوا ، وراجت تجارة خديجة راجا غير مسبوق ، فريحت تجارتها  
على يد أمينها ضعف ما كانت تريح ، وسر ميسرة ما رأى من رواج  
التجارة ، فقد كان وفيا بسيدته ، معجبا بفضلها .

وساعد الريح الوفير أن يعود أمين خديجة بقدر من البضاعة  
لم يخطر لخديجة على بال ، ولكنها السعادة الأزلية أدنت لها البعيد  
وذلت العسير .

مشاهدات ميسرة :

وقد شاهد ميسرة فى سفره عجا ، فقد رأى غمامة ظللت الأمين منذ

غادر مكة فوقته حر الشمس الذى كان يشبه اللهب ، وما أرق ما قيل  
فى الغمامة للأمين :

لو قال يوما ظلته غمامة ... هى فى الحقيقة تحت ظل القائل .

ومعنى قال فى ذلك البيت أى دل فى وقت القيلولة ، والمراد  
بالقائل الوارد فى آخر البيت الأمين عليه الصلاة والسلام والمراد  
بكونها تحت ظله أنها فى كنفه وستره ومحتاجة للتبرك به .

نسطور الراهب :

وانضاف إلى ما شاهده ميسرة من أمر الغمامة أن الأمين خلا بنفسه  
يفكر فجلس تحت شجرة عظيمة الساق ، كثيرة الفروع ، وارقة الظلال  
حين كان مسرة يعلف الدواب فاذا يراهب أسمه نسطور ، كان يعرفه من  
قبل ، يقدم عليه ويسأله : من الذى يصحبك يا ميسرة .

قال ميسرة : شاب من قريش .

فقال له : ماذى رأيت من صفته ؟

قال ميسرة : الأمانة والنزاهة وكرم الخلق ، وجلوسه هكذا  
الساعات الطوال غارقا فى بحار الفكر ، فى سبجات العابدين الخاشعين .

فقال نسطور : وما شكل عينيه يا ميسرة ؟

قال ميسرة : واسع العينين أدعجهما ، تشوب بياضهما من الجواب

حمرة خفيفة ، تزيد فى قوة جاذبيتها وذكاء نظرتها أهداب طوال سود حوائك .

فقال نسطور لميسرة ، وهو يسير إلى حيث يجلس الأمين : يا ميسرة إن من يجلس بجوار هذه الشجرة ، وتظله هذه الغمامة المنخفضة وصفاته كما تصف ليس الإنبياء ، فإزداد ميسرة بأمين سيدته إعجابا فوق إعجاب ، وأجله أيما إجلال

وتقدم نسطور إلى الأمين . صلى الله عليه وسلم . يحدثه فى دين قومه بمكة فرآه كارها ما هم عليه من عبادة الأوثان ، فإزداد نسطور وثوقا فى نبوة الأمين .

خارقة أخرى :

وقد تحركت القافلة عائدة إلى مكة ، فضعف فى الطريق بعيران من الأبل التى يتعهدا ميسرة ، وعبثا حاول ميسرة أن يحملها على مسايرة الركب مع الأبل فرفع أمرهما للأمين ، فتوجه إليهما الأمين ومسح بيده على أخفافهما ثم أمسك بمقودهما وقادهما ، فسارا خفافا فى نشاط ظاهر كأن لم يكن بهما شئ .

فضم ميسرة هذه الواقعة إلى ما شاهده من تظليل الغمامة ، وإلى ما قال نسطور ، فلم يسعه أمام تلك الخوارق إلا أن يعجب بالأمين أيما إعجاب ، ويقدره أيما تقدير .

تجارة رابحة :

فلما كانت القافلة بمر الظهران قريبا من مكة ، أقترح ميسرة على الأمين أن يسبق القافلة إلى مكة ليبشر خديجة بالربح الوفير الذى جاءها على يده .

خديجة والأمين :

وبينما كانت السيدة خديجة تدير الطرف فى الفضاء لمحت من بعيد راكبا يعدوا نحو مكة تظلمه غمامة ، فلما اقترب أيقنت أنه الأمين الذى سافر فى تجاتها إلى الشام وعاد من رحلته .

فسرها أن تراه سالما ، فرحبت به ، واستمعت إلى أخبار البيع والشراء فاعجبت بأمانته وفصاحته وبلاغته ، ثم غادرها الأمين إلى بيت الله فظافه قبل أن يرى أعمامه الذين كانوا يرقبون عودته من رحلته بفروغ صبر .

ولما وصل ميسرة إلى السيدة خديجة قص عليها ما رأى وما سمع ، فقالت له : صدقت ياميسرة ، فلقد رأيت اليوم بعينى عجا يؤيد ما قصته على ، رأيت مع القافلة السحابة البيضاء الجميلة تصاحب الراكب الأمين وهو قادم على دارنا .

وهنا خلت خديجة الرشيد لنفسها ، وأخذت تربط الماضى بالحاضر وتتنظر بنور الفكرة الصائبة فى المستقبل .

تأويل الرؤيا :

إنهما فى الماضى رأت رؤيا منامية : رأت فيها أن شمسا عظيمة أشد ما يكون الضوء جمالا وجلالا ، تهبط إلى دارها من سماء مكة ، فيغمر ضوءها ما يحيط بها من بقاع واماكن ، وقد قصت تلك الرؤيا على ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان من أهل العلم والحكمة الذين نبذوا عبادة الأوثان واعتزلوا عابديها فى انتظار ظهور نبي آخر الزمان الذى بشرت به التوراة كما بشر به الإنجيل ، فاستبشر بما رأت أبنة عمه وبشرها قائلا

لك البشرى ، ياخديجة ، يا أبنة العم ، فهذه الشمس المضيئة علامة على قرب ظهور النبي الذى أظل زمانه ، ودخولها دارك دليل على أنك أنت التى ستزوجين منه

نصيحة رجل غامض :

كما أنها فى الماضى كانت مع نساء قريش ، يسمرن فى عيد لهن ، فتمثل لهن رجل طويل ، غامض الوجه ، أخذ يقترب منهن شيئا فشيئا حتى أقترب منهن هاتفا : يا نساء مكة إنه يوشك أن يبعث فيكن نبي ، هو خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ورسول رب الناس إلى الناس كافة ، فمن استطاعت منكن أن تكون زوجا له فلتفعل .

وتفرس النساء فى وجه ذلك الرجل إنه رجل يهودى غريب عن مكة وأخذن يرمينه بالحصى حتى ولى بعيدا عنهن ، ولم تشاركهن السيدة

خديجة التى كانت محل إجلال واحترام فى قومها حتى كانت تلقب تارة بالطاهرة وتارة بسيدة نساء قريش .

بين خديجة وورقة بن نوفل :

عادت السيدة الطاهرة خديجة إلى بيتها وجرها كلام ذلك اليهودى إلى تذكر كلام كانت تسمعه من ابن عمها ورقة بن نوفل عن قرب مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى توحيد الله وهو ملة أبيه إبراهيم عليه السلام ويصرفهم عن عبادة الأصنام التى هى عبادة للشيطان الرجيم .

وكان ورقة يعيب على أهل مكة عبادتهم للأصنام ، ويلتزم فى عبادته دين إبراهيم عليه السلام ، فأجتنب الخمر والميسر ، وكان يرحم الموءودة التى يفكر أبوها فى قتلها ، ويفتديها بماله ويربيها عنده حتى إذا كبرت ورغب أبوها فى استعادها ردها إليه :

وقد قال ورقة شعرا جاء فيه :

لا تعبدن إلاها غير خالفكم فإن دعوكم فقولوا بيننا حدد

سبحان ذى العرش سبحانا يدوم له وقبلنا سبح الجودى والجمد

والتدين الذى يكشف عنه شعر ورقة دعاه أن ينظر فى التوراة والإنجيل وأن ينقل عنهما إلى لغته العربية ما استطاع من ذلك على الرغم

من شيخوخته وكبر سنه . وراهما يبشران بآخر الأنبياء والمرسلين  
الذى تختم به الرسالات السماوية .

وكما تذكرت السيدة الطاهرة كلامه فى الرسالة ، تذكرت تأويل  
ورقة لرؤياها التى رأتها من قبل ، حين قصتها عليه وكان فيما قال لها من  
تأويله : ودخول الشمس دارك دليل على أنك ستتزوجين منه .

وبعد أن سمعت من ميسرة غلامها ما سمعت ، ورأت بنفسها من  
بركة أمينها ما رأت ، كان لا بد لها أن تقص على ابن عمها ورقة ما سمعت  
وما رأت وما كادت تفعل حتى قال لها ذلك المتعبد المتحنث الذى قرأ  
بنفسه التوراة والإنجيل : .

" إن كان هذا حقا يا خديجة ، فإن محمدا نبى هذه الأمة فلقد عرفت  
أنه كائن لهذه الأمة نبى منتظر وهذا هو زمانه الذى فيه يبعث " .

صديقة خديجة :

وكان للسيدة الطاهرة صديقة عزيزة هى السيدة نفيسة بنت منية  
الصاحبية أخت يعلى بن منية الصحابى المعروف بيعلى ابن أمة ( فأمية  
أبوه ومنية أمه ) فلم تكتم عنها إعجابها بأمينها الذى ائتمنته على تجارتها  
وأشارت لها بما رآته من صدقة وأمانته وبركته .



فرأت نفيسة من واجبها نحو صديقتها خديجة ان تعمل على اسعادها  
بالزواج من ذلك الامين . ولم يونسها ان خديجه رفضت قبله الزواج  
من اشراف قریش . وهذا الموقف من السيده نفيسه دل على نبلها  
وذكائها ووفائها . وما عليها لو سعت سعيها وتركت للاقدار ما شاء الله  
وأراده ان يكون .

وبدأت تاخذ فى الاسباب فقالت للسيدة خديجه وما عليك يا خديجة  
ان تتزوجى من الامين .

وتحيرت السيده الطاهره فى اجابتها ، فهى اما ان ترحب بالفكرة  
وقد لا يرحب بها الامين . واما أن تكتم رغبتها حتى تبدو منه الرغبة  
فتتلقى الرغبان وينعم بالزواج الطرفان.

استطلاع:

وهنا أشارت عليها أختها هاله ان تستطلع رغبه الأمين فعهدت إلى  
صديقتها نفيسه بهذه المهمه ، فترك السيده نفيسه تتحدث عما كان فيما  
رواه ابن سعد بسنده .

تقول نفيسه :

كانت خديجه بنت خويلد بن عبد العزيز بن قصي امرأة حازمه جلد  
شريفه مع ما اراد الله بها من الكرم والخير وهى يومئذ اوسط قریش

نسباً، وأعظم شرفاً، وأكثرهم مالا، وكل قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال.

وتستطرد السيدة نفيسة فتقول:

استدعتني خديجة إليها عقب وصول قافلتها التي كان محمد الأمين يشرف عليها ويقودها فقالت:

لقد اخترتك لامر هام ثق به بك، قالت أنا أطوع لك يا سيدتي من بنائك، قالت انطلقى إلى محمد فاذكريني له فقلت لها: إنك أوسط قریش نسباً، وأعظم شرفاً وأكثرهم مالا، وإن كل قومك حريص على زواجك لو قدر على ذلك وقد طلبك أكابر قریش وبذلوا لك الاموال فلم تفعلى.

قالت خديجة: لقد قلت حقاً، ولكننى اليوم راغبه فى محمد وقد حزمت أمرى واخترت رجلى، فانطلقى إليه فاذكرينى له.

فذهبت السيدة نفيسة إلى بيوت بن هاشم تنشده حتى اذا رآته فى أحد بيوت عماته انتهزت خلوة به فقالت فى ترفق وإغراء:

إنك اليوم أمين قریش وفتاها الحبيب وقد تزوج لـدانك وأصبح لكل منهم الولد فما يمنعك من الزواج.

قال: ما بيدي ما أتزوج به.

قالت نفيسة : فإن كفيت ذلك ، ودعيت إلى الجمال والمال والشرف  
ألا تجيب .

فقال الأمين : فمن هي ؟

قلت : خديجة ؟ قال : بنت خويلد ؟ قلت نعم

فقال في ابتهاج وكيف لى بذلك .

قلت على ذلك فقال : وأنا رضيت .

وعادت نفيسة إلى صديقتها بأحب بشرى إلى قلبها ، فإن أمينها علق  
الزواج على قبول خديجة .

نظرة دينية :

ولعل القارئ الكريم يعجب معى إذ يرى السيدة خديجة تنظر فى أمر  
الزواج من أمينها نظرة دينية قبل الأوان ، وإلا فكيف تتحرك لهذا  
الزواج مدفوعة بما تراه من بركاته الخارقة التى رواها غلامها ميسرة  
ورأت بعضها بنفسها ، فضلا عما أنبأها به ابن عمها ورقة بن نوفل مما  
قرأه فى التوراة والإنجيل ، ولو أنها كانت تريد الزواج الملائم فحسب  
لتم الزواج قبل ذلك حين خطبها كثيرون من عليه قومها الذين رغبوا فى  
زواجها لمالها وجمالها وحسبها .

وأنه لما يشرف السيدة خديجة أن تسعى إلى قبول هذا الزواج ،

وما أرشد أمينها وهو شاب فى الخامسة والعشرين أن يقبل زواجها وهى أرملة فى الأربعين ذات أطفال من غيره ، ويشرف نفيسة بنت منية أن تكون السفيرة بين الطرفين وقد كافأها الله فأمنت وصار لها صحبة .

أخذ الأمين العجيب أن ترفض خديجة أشرف قومها الذين ألحوا فى الزواج منها وترتضيه هو وإن كان أقل مالا ممن رفضتهم .

وتلتقى به إحدى الكائنات وهو يسير بالقرب من منزل السيدة الطاهرة فتفاجئه سائلة .

جئت خاطبا يا محمد .

فأجابها صادقا : كلا .

قالت : ولم ، فوالله مافى قريش امرأة وإن كانت خديجة إلا تراك كفننا لها .

بين خديجة والأمين :

وأرسلت أمنا الكبرى إلى أمينها تستدعيه فلما جاءها تكلمت معا فى الزواج السعيد فقال لها الأمين :

من لى بك وأنت أيمّ قريش ، وأنا يتيم قريش .

فأجابت : يا ابن العم إنى قد رغبت فىك لقربتك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك .

وأضافت تفصح عن شأنه الأعظم المرتقب الذى بشرها به ورقة بن نوفل فقالت : إني لأرجو أن تكون أنت النبى الذى سيبعث . فإن تكن هو فاعرف حقى ، وأدع الاله الذى سيبعثك لى .  
فقال الأمين الذى يأسره الجميل : والله لقد اصطنعت عندى مالا أضيعه أبدا ، وأن الإله الذى تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبدا .

آيات بينات :

وأى آية تجلت فى ذلك اللقاء لقد رأى الأمين نفسه بحق يتيم قریش ورأت فيه خديجة النبى الذى آواه الله من يتم وأغناه من فقر .  
وأى آية سبقتها حين عرضت عليه خديجة نفسها زوجها له وهى التى رفضت قبله أهل الحسب والمال ، ولم يكن ذلك من عادة أمثالها .  
وأى آية كانت قبل ذلك حين استأجرته أمينا على تجارتها بضعف ما كانت تستأجر به غيره من الاجراء .

وأى لآية ظهرت لها فى تجارتها لحسابها من أرباح مالية مضاعفة ، سبحانك ربى ، فأنت الفعال لما تشاء ، فقد الأمين أباه وهو جنين فى بطن أمه ، فتولته أمه الرءوم السيدة آمنة بنت وهب حتى بلغ السادسة ، فلما ماتت قام عليه جده عبد المطلب ، فلما مات قام عليه عمه أبو طالب .  
ولما نشأ قليل المال عوضته عنه يا إلهى بصدق الفعال ، فلما اشتهر

بها ، رزقته المال والجمال والكمال ، فشرحت صدر تلك اللبيرة العاقلة أن تخطبه لنفسها ، على غير عادة النساء فبدلت بقدرك لبعادة لتتم له بذلك السعادة ، وكان هو المخطوب لا الخاطب ، والمطلوب لا الطالب .

وكان ذلك الزواج بعيدا عن فكره ، فهو الشاب الناشئ ، وهى الشيخة المجربة ذلت الأطفال من غيره . التى كانت قد أبت أن تجرب الزواج مرة ثالثة ، بعد أن تجرعت الحزن على الزوجين الأولين .

وليت شعرى هل أراد الله أن تكون أولى أزواجه شيخة عاقلة ، تكفيه رعونة الشابات ، أو أراد أن يكافئه على صبره حين فقد أمه فى الشيخة طيف أمه الحنون إلى جانب أنها الزوجة الوفية .

أو هل أراد الله أن يجعل هذا الزواج مقراضا يقرض به السنة المستشرقين المخرصين من حساده أعداء الدين حين يتعرضون بالنقد المغرض لتعدد أزواجه .

تخرص المتخرصون وهم يعلمون أن تعدد الزواج لم يقع فى حياة أمنا الكبرى التى عاشته وحدها ربع قرن من الزمان وخلفته أيما شيخا فى سن الخمسين بعد أن قضى زهرة شبابه مع الزوجة الشيخة .

تخرص المتخرصون وهم يعلمون أنه حين دعت الظروف للتعدد لم يتزوج بكرا فى نسائه الكثيرات إلا واحدة هى السيدة عائشة رضى الله

عنها ، حتى كانت تدل بذلك وتقول لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا لست كأحد من نساءك يا رسول الله ، كل امرأة منهن كانت عند رجل سوى .

تحرص المتحصرون وهم يعلمون أن الرجل ذا الشهوة الزوجية لا يرغب في الثيب لا في شبابه ولا في شيخوخته بل يحرص على الأبقار الحسان .

تحرص المتحصرون وهم يعلمون أنه كان يعدل بين نساءه في حضره وسفره وكان يقترع بينهن في السفر .

تحرص المتحصرون وهم يعلمون أن نساءه كن يتشرفن بالانتساب إليه كأزواج لرسول كريم حتى أبت إحداهن ( السيدة سودة بنت زمعة ) أن يطلقها ، ووهبت ليلتها للسيدة عائشة وقالت للرسول صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله مالي من حرص على أن أكون لك زوجة مثل عائشة ، فأمكنى حسبى أن أعيش قريبة منك أحب حبيبك وأرضى لرضاك .

تحرص المتحصرون وهم يعلمون أن نساءه كن باختيار الله وأنه أمره ألا يبدل بهن أخريات ولو أعجبه حسنهن ، فقد تم زواجه بإحداهن في السماء ( السيدة زينب ابنة عمته ) وهي التي قال الله في شأنها ( فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج

فى أزواج أديائهم اذا قضاو منهن وطرا ) ولذلك كانت رضى الله عنها تدل على سائر أزواجه وتقول لهن : زوجكن آباؤكم وزوجنى الله من فوق سبع سموات .

تخرص المتخرصون وهم يعلمون أن الله تعالى أباح له التعدد وليس مع الحلال تهمة ، إنما التهمة فى الحرام ، وكان فى التعدد مصاهرة لبعض العشائر والقبايل تألفا للقلوب وتوسيعا لدائرة الاسلام ، وكذلك كان فى التعدد مواساة للسابقات اللائى فقدن أزواجهن حتى يكن فى ستر وامان فى عصمة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كما كان زواجه بأم حبيبة بنت أبى سفيان التى أرتد زوجها فى الحبشة عن الاسلام ، أو بأم سلمة التى مات زوجها مسلما بمكة أثر عودته من الحبشة وهى فى مطلع الشيخوخة وتركها أرملة حزينة .

هم ولا شك يتعامون عن هذه الحقائق عامدين ، ولا عجب فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

وحيا الله الدكتور بنت الشاطىء اذا قالت فى كتابها " نساء النبى " " وقد قال المستشرقون فى تعدد الزوجات ما قالوا ، ولم يروا فى هذا الجمع بين عدد من النساء تحت رجل واحد سوى مظاهرة مادية مسرفة ، وأنه لضلال أملاه التعصب الاحمق والهوى الجامع ، وانحراف عن المنهج العلمى الذى يابى أن نقيس مسألة تعدد الزوجات بمقاييس عصرية مستحدثة صنعتها بيئة تفصلها عن بيئة محمد آباد وأبعاد .



" وهذا الغرب لا يجرؤ اليوم على أن يدعى أن نظام الزوجة الواحدة يتبع فى دقة وينفذ نسا وروحا . . "

بين الأمين وعمه :

وبعد الحديث الذى جرى بين أمنا الكبرى وأمينها ، ذهب الأمين إلى عمه أبى طالب وأنبأه بما كان فى ذلك الحديث فتعجب أبو طالب وقال : عجا يا بنى أن ترد خديجة سيدة قریش ذوى المال والجاه ثم ترتضيك أنت بعلا لها .

ثم استدرک قائلا :

ولكنك يا بنى ان افتقرت إلى المال ، فأنت غنى فى الشرف والنسب .

قال الأمين : يا عمى ، لا طمع لى فى مال ولا حاجة بى إليه .  
وذهب أبو طالب مع رهط من بنى هاشم يخطبون أمنا الكبرى من عمها عمرو بن أسد ، وأخيها عمرو بن خويلد للأمين ، فرحبا بالخطبة أيما ترحيب ،

حفل الزواج :

وحدد يوم الزواج ، وجاء إلى دار العروس رهط من بنى هاشم ورهط من قومها لتوثيق العقد بالإيجاب والقبول ، وتكلم فى الحفل أبو طالب فقال :

" الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وأصل  
 معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا سدنة بيته ، وسواس حرمه .

" أما بنى أخى محمد فلا يوزن به رجل إلا رجحه شرفا ونبلا  
 وفضلا وعقلا ، وإن كان فى المال قلا ، فان المال ظل زائل ، وأمر  
 حائل وعارية مسترجعة .

ثم أفصح بعد هذه المقدمة عن رغبة الأمين فى الزواج من خديجة ،  
 ورغبة خديجة فى الزواج منه ، وقرر مقدار الصداق الذى أمهره الأمين  
 ومقداره عشرون ناقة .

وأعقبه عم خديجة عمرو بن أسد ، فاشئى على الأمين محمد ، وأعلن قبول  
 الزواج على الصداق المعروف .

ونحرت يومئذ الذبائح وأطعموا منها الوافدين والوافدات ، وكانت  
 حليلة أم الأمين من الرضاع بينهن ، وقد عادت بعد الحفل إلى قومها بنى  
 سعد وبين يديها أربعون رأسا من الغنم هدية من العروس لمرضعة زوجها  
 الحبيب ، وكيف لا تكرم العروس حليلة وقد رأت بنفسها أن الزوج  
 الحبيب هش لقائها ورحب بها قائلا أمى أمى ، وبسط لها رداءه فجلست  
 عليه .

مودة ورحمة :

وزفت سيدة قريش إلى أمين قريش ، وقد سعد الزوجان بالمودة

والرحمة التى قامت بينهما واستقرت فعرفت أمنا الكبرى أمينها زوجا كاملا أكمل ما يكون الزوج ، كما عرفته من قبل أمينا أكمل ما يكون الأمين .

البنون والبنات :

ورزق الله الزوجين البنين والبنات ، فكان لهما من البنين القاسم وعبد الله ( ويلقب بالطاهر والطيب ) ومن البنات زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة الزهراء ، عليهم رضوان الله ، وقد فقدوا ولديهما الحبيبين فى طفولتهما واحتسبا عند الله القاسم ثم عبد الله وبقيت لهما بناتهما الأربع .

فى غار حراء :

ومن مظاهر المودة والرحمة أن الزوجة الكاملة تركت لزوجها حرية التعبد كما يشاء فكان الأمين يذهب إلى غار حراء ، ليخلو مفكرا فى صنع الله الذى أتقن كل شىء ، ومنكرا عبادة الأصنام التى تكدست حول الكعبة وعبدها كفار قومه ، يتذرعون فى عبادتهم لها بما ألفوا عليه آبائهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون .  
لكن أصالة الأمين وصلته بجديده العظيمين إبراهيم وإسماعيل اللذين أوحى الله إليهما أن يبني الكعبة البيت الحرام للطائفين والعاكفين والركع السجود .

وكان إبراهيم عليه السلام أمه قانتا حنيفا ولم يكن من المشركين ،  
وكان إسماعيل عليه السلام يأمر أهله بالصلاة و الزكاة و كان عند ربه  
مرضياً .

فليس عجيبا من الأمين الذى انحدر من سلالتهم أن يعاف بفطرته  
السلامة ، و عقله الكبير ، و قلبه الطاهر ، عبادة الأصنام و ينأى بالخلوة  
عن مواطن الزحام ، سعيداً بخلوته و نسكه شأن الأصفياء الأتقياء  
الذين يصطفاهم الله بعلمه و يصطنعهم لنفسه و على عينه سبحانه .

عطف الزوجة :

وآزرت أمنا الكبرى زوجها الأمين فى مسأكه هذا ، فلم تعترض عليه  
فى خلوته بعيداً عن داره طوال شهر رمضان الذى كان يختار أيامه  
للخلوة ، لا بل إنها كانت ترسل وراءه من يحرسه و يرعاه ، و كانت  
تذهب بنفسها إلى الغار لتطمئن عليه .

بداية الوحي :

وحين أذن الله لصبح الإسلام أن يسفر ، جاءه جبريل عليه السلام  
فى غار حراء و بلغه عن ربه قوله الكريم ( اقرأ باسم ربك الذى خلق \*  
خلق الإنسان من علق \* اقرأ وربك الأكرم \* الذى علم بالقلم \* علم  
الإنسان ما لم يعلم ) .

و نودى اقرأ تعالى الله قائلها  
 هناك أذن للرحمن فامتألت  
 لم تتصل قبل من قيلت له بفم  
 آسماع مكة من قدسية النغم

وثبات و تثبيت :

كان الزوج الكريم قد قارب الأربعين من عمره و لم يكن له عهد  
 بجبريل و لا بالكلام الذى أوحاه إليه ، فجاء زوجته اللببية مرعوب  
 الفؤاد وقال لها زمينى<sup>١</sup> . زمينى ، و قص عليها ما رأى وما سمع ، يلتمس  
 عندها الطمأنينة فقال :

" يا خديجة ، ما الذى بى ، كنت نائماً بغار حراء فإذا بملك جميل  
 الصورة قد تبدى لى ، و بيده صحيفة من ديباج ، و سمعته يخاطبنى إقرأ ،  
 فأخذت و قلت ما أقرأ ، فأحسست أن الملك يخنقنى و يضغط ضغطاً  
 شديدا حتى حسبت أن الموت ، ثم أرسلنى و قال لى إقرأ.

فقلت ما أقرأ :

فأحسست مرة أخرى أن الملك يخنقنى و يضغط ضغطاً اشد ، ثم  
 أرسلنى و قال لى إقرأ ،  
 و خشيت أن يعود معى بمثل ما صنع بى ، فقلت ماذا أقرأ ؟

<sup>١</sup> -أى ضعى على الغطاء .

وقال : ( اقرأ باسم ربك الذى خلق \* خلق الإنسان من علق \*  
 اقرأ وربك الأكرم \* الذى علم بالقلم \* علم الإنسان ما لم يعلم ) .  
 " فقرأت ما قاله الملك وقد نقش فى قلبى وطبع على صفحة فؤادى ،  
 فتركنى الملك وانصرف .

وهبيت قائما وقد تولانى الجزع ، وتملكنى الفزع ؛ فأخذت ألتفت  
 فى أرجاء الغار فزعا ورعبا أسأل نفسى من الذى خاطبنى ، من الذى  
 أقرانى ،

" وغادرت الغار مسرعا ، وقد حسبت أنه قد لحقنى مس من الجن  
 وأصابنى ما كنت أخاف وأخشى .

وهمت بين شعاب الجبل وأنا أتساءل : من هذا الشخص الذى  
 تمثل لى ، ومن الذى عنى بما أقرانى .

وبينتما أنا بوسط الجبل سمعت صوتا ينادينى : محمد ، ورفعت رأسى  
 فرأيت أمامى الملك وقد تمثل لى فى صورة رجل ينادينى :

يا محمد أنت رسول الله ، وأنا جبريل .

فزاد رعبى واشتدج على الفزع ، ووقفنى الهلع ، فلم أجد لنفسى  
 مهربا ، فجعلت أدير نفسى يمنا ويسرة ، أحاول أن أصرف عن ناظرى  
 صورة هذا الشخص الذى أمامى ، ولكنى كنت أراه أينما وليت وجهى  
 وحيثما حولته .

عالجت أن أتقدم أو أتأخر ، فإذا بى أرى صورة هذا الشخص  
تترأى لى أينما وجهت وجهى ، وحيث أرسل بصرى فى آفاق السماء .  
وهنا هدأت من روعه زوجته العاقلة الرشيدة وقالت له :

الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذى نفس  
خديجة بيده ، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ،  
وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق ، وتصدق الحديث ، وتؤدى  
الأمانة .

يا للعقل الكبير ، والقلب المنير ، ويا للنور الذى ينبعث قويا من  
وراء الحجب فيظهر المحجوب أمرا واقعا ، وسبحان الله الفعال لما يشاء ،  
فعهدنا بالنساء فى مثل هذا المقام أن تضرب على صدرها مرعوبة الفؤاد  
مرتعدة الفرائض ، تزيد الخائف خوفا ، والمهتز اهتزازا .

وهذه تقول فى قوة يقين بالله ، قبل أن تدعوها الرسالة إلى الله :  
الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت .

لك البشرى يا أمنا والثبات ، ولنا البشرى من أمنا والثبات .  
أمنت الحبيب فأمنك الله ، وبشرت الحبيب فبشرك الله ، وكان لأمته  
من أمنه وثباته الأمن والثبات .

لك الله يا أماه ، كيف ثبت فى هذا المقام وأنت تعلمين أن زوجك لا يهتز من أمر يسير ، ولا بد أن يهتز من أمر خطير إنك تعلمين علم اليقين أن غير زوجك لا يقوى على الخلوة وحده فى غار حراء بين الجبال الشماء .

هل توقعت أن يكون ما رأى زوجك الأمين بداية الرسالة التى بشرك بها من قبل ابن عمك ورقة بن نوفل فاستبشرت فى نفسك وبشرت الزوج الأمين ، أو هل ربط الله على قلبك لتكونى من المؤمنين كما ربط من قبل على قلب أم موسى .

بالله كيف رجوت أن يكون نبي هذه الأمة ، وكيف أكدت له بالقسم العظيم أن الله لا يخزيه أبدا .

كان قومك يعبدون الأصنام ويستقسمون بالأزلام ، وجئت أنت تحلفين بالله إن الله لا يخزي زوجك الذى تحلى بأكرم الصفات وأشرف الخصال ، فلم يكن قسمك باللات ولا بالعزى كما كان قومك يحلفون . فبالله كيف وثقت أن الجزاء من جنس العمل فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

ما أعظمك يا أماه حين اخترتيه أمينا على تجارتك ، وحين أرتضيتيه زوجا ، وحين وصفته بصورته الحققة التى لا يخزيه الله فيها أبدا .



وما أسعدك يا أمّاه حين كنت أول من تلقى من فمه الطاهر بداية  
الوحي ( إقرأ باسم ربك الذى خلق . . ) فذقت حلاوة القرآن الكريم  
قبل الناس جميعا رجالا ونساء .

وما أنفذ بصيرتك حين تسللت من الدار بعد أن زمّلتيه ونام ، وذهبت  
إلى ابن عمك ورقة بن نوفل ، وقصصت عليه ما كان فى ذلك اليوم من  
دخول زوجك عليك فى السحر مرجوف الفؤاد للأمر الذى عراه ولم  
يكن له به عهد .

لأنه هو ورقة بعينه الذى كنت توالينه بخوارق أمينك ، وما حدثك  
فى شأنه غلامك ميسرة ، قبل أن يكون الأمين لك زوجا ، فكان يبشرك  
بنبوته ويقول لك : إن كان هذا حقا يا خديجة فإن محمدا نبي هذه الأمة ،  
وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر ، هذا زمانه ، وقد تلهف على  
ظهوره ، وتمنى أن يدركه ويكون أول مؤمن برسالته ، وعبر عن  
ذلك بشعره الذى يقول فيه :

لججت وكنت فى الذكرى لجوجا	لهم طالما بعث النشيجا <sup>١</sup>
ووصف من خديجة بعد وصف	فقد طال انتظارى يا خديجا
ببطن المكتين <sup>٢</sup> على رجائى	حديثك أن أرى منه خروجا

<sup>١</sup> البكاء  
<sup>٢</sup> - جانبى مكة

بما خبرتنا من قول قس  
 بأن محمدا سيسود فينا  
 ويظهر في البلاد ضياء نور  
 فيلقى من يحاربه خسارا  
 فياليتي إذا ما كان ذاكم  
 ولوجا في الذي كرهت قريش

من الرهبان أكره أن يعوجا  
 ويخصم من يكون له حجيجا  
 يقيم به البرية أن تموجا<sup>١</sup>  
 ويلقى من يسالمه فلوجا<sup>٢</sup>  
 شهدت فكنت أولهم ولوجا<sup>٣</sup>  
 ولو عجت بمكتها عجيجا<sup>٤</sup>

فهل كنت يا أماء حين ذهبت إلى ورقة تريدين أن تبشره ببدايه  
 الوحي ليظمن قلبه على ما أعتقد من قرب ظهور الرسالة ، أو كنت تريدين  
 أن تسمعي منه البشرى بأن بداية الوحي هو بداية الرسالة المرتقبة ،  
 قد يكون هذا أو ذاك ، إنما الذي لا شك فيه أن ورقة أنتشى  
 وجدانا حين نقلت إليه الخبر ، ولم يتمالك نفسه أن قال لك :  
 قدوس ، قدوس والذي نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتني ياخديجة  
 لقد جاءه الناموس الذي كان يأتي موسى وعيسى ، وأنه لنبي هذه الأمة ،  
 فقولى له فليثبت ، فقد قرب الأوان ، واستدار الزمان ، وأن لمكة أن  
 تشهد الآية الكبرى .

١ - تضطرب  
 ٢ - الظهور على الخصم  
 ٣ - الدخول في الدين  
 ٤ - ارتفعت أصواتهم

وما درى ورقة أنك كنت نظرت فى الأمر بنور الحق وقلت لزوجك الحبيب قبل أن تذهبى إلى ورقة : أبشر يا ابن عم واثبت فوالذى نفس خديجة بيده إنى أرجوا أن تكون نبى هذه الأمة .

العودة بالبشرى :

وقد عادت أمنا الكبرى إلى دارها تزف بشرى الرسالة إلى زوجها ولم تشأ أن توقظه من نومه ، ولكنه استيقظ يتصبب العرق من جبهته ، ويبدو مستمعا إلى محدث غير ظاهر ، ثم يردد ما نقله إليه ذلك المتحدث : ( يا أيها المدثر \* قم فأنذر \* وربك فكبر \* وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر \* ولا تمنن تستكثر \* ولربك فأصبر ) .

عهد الجهاد :

وما كادت أمنا الكبرى تحدث زوجها بما بشرها به ابن عمها ورقة ، حتى استدار صلى الله عليه وسلم ونظر إلى الفراش وقال متأثرا : انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة ؛ فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس ، وأن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته ، فمنذا أدعوا ومنذا يستجيب .

أولى المؤمنات :

فأجابته من فورها فى لهفة المؤمنة الصادقة :

أنا استجيب يا محمد ، فادعنى قبل أن تدعو أى إنسان ، وإنى لمسلمة لك ، مصدقة برسالتك ، مؤمنة بربك .

وأستجاب له من الرجال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ومن الصبيان على بن أبي طالب .

وفى هؤلاء السابقين يقول أمير الشعراء شوقي رحمه الله :

ناجاهمو ببينات ربه فآمنت بنت<sup>١</sup> خويلد به  
فقل فيهما أسبق الاناث وفى على أسبق الأحداث  
وفى الرجال لأبى بكر يد بالسبق لم يبلغ مداها سيد

أو مخرجى هم :

وحين ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ورقة بن نوفل لسمع منه ، ما كاد ورقة يراه حتى صاح : والذى نفسى بيده ، انك لنبى هذه الأمة ، ولتكذبن ، ولتؤذنين ، ولتخرجن ، ولتقاتلن ، ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصر الله نصرًا يعلمه ، ثم أدنى رأسه إليه يافوخة ، ثم قال له صلى الله عليه وسلم :

أو مخرجى هم ، فأجاب ورقة : نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودى ، ليتنى أكون فيها جذعاً ، ليتنى أكون حيا ، وفى رواية البخارى ؛ وأن يدركنى يومك انصرك نصرًا مؤزرا ، ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتروا الوحي .

١ - السيدة خديجة فهي خديجة بنت خويلد .  
٢ - صغير السن .

وقدى لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه ما قاله ورقة ، فقد كذبوه ، وآذوه كما آذوا أصحابه الأولين ، فأمرهم صلى الله عليه وسلم أن يهاجروا الى الحبشة فرارا بدينهم ، فتركوا الأهل والأوطان إلى بلاد الغربية معتزين بدين الاسلام القيم ، وكان حادى ركبهم وهم خارجون من مكة يغنى ويقول :

الأهل والأوطان	فراقهم صعب
لكنه الإيمان	فداؤه القلب
والروح والأبدان	فليقبل الرب
فليقبل الرب	

ثم هاجر هو صلى الله عليه وسلم بعد ذلك الى المدينة المنورة ، بعد ان دعا الى الله فى مكة ثلاثة عشر عاما ، لقي فيها من الشدائد ما لقي ، ولكنه صبر لربه صبر أولو العزم من الرسل ، ولما وصل صلى الله عليه وسلم الى المدينة آوى الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن لحق به من أصحابه المهاجرين ، ثم نصروا دعوته بالسيف حين أبى كفار مكة إلا الحرب ، حتى تم النصر للمسلمين عليهم ، كما تم النصر على اليهود من بعدهم وفتحت مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، ألا رضى الله عن المهاجرين والأنصار ومن والاهم باحسان إلى يوم الدين .

تضحيات كبرى حمل عبأها صاحب الذكرى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأولون لكنهم استساغوها مع مرارتها لأنها فى سبيل الله ، ولولا أنهم تحملوها ما بقيت كلمة الله فى الأرض حتى وصلت إلينا وسعدنا بها ، فنحن مدينون لهم ، ومن حقهم علينا أن نذكرهم بالفضل على الدوام ، وكيف لا نذكرهم بالفضل وقد خلدتهم الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم بقوله تعالى ( والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم ) وكما نذكرهم بفضلمهم علينا يجب أن نحصر على ديننا وأن نتبع أحكامه بقوة ولا نفرط فيها فقد جاءنا بعد جهاد طويل وشاق ، كذلك يجب أن نورثه للناشئة من أبنائنا وبناتنا ونسائنا ، فكلنا راع ومسئول عن رعيته .

وليس الغرض من الاجتماع فى مناسبة الذكرى السعيدة ، ذكرى المولد النبوى المبارك ، أن نردد قصة المولد ، بل نعتز بما كان من بركات صاحب الذكرى وآثاره ، ونشد العزائم من همته وتضحياته ، ونقدر الفضل لأصحابه ، فقد ورثنا المجد من أطرافه فى الدنيا والدين حتى دانت لنا المشارق والمغرب ، ونحن اليوم أحوج ما نكون الى وحدة المسلمين لاستخلاص حقوقهم المغتصبة ، وإسترداد أرضهم المسلوبة ، وفيها بيت المقدس والمسجد الأقصى وهو أولى القبلتين ، وثانى المسجدين ، وثالث الحرمين ، ورحم الله

أمير الشعراء شوقي إذ يقول منوها بفضل صاحب الذكرى صلى الله عليه وسلم :

وعلمنا بناء المجد حتى أخذنا إمرة الأرض إغتصابا  
وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا  
وأشكركم على حسن إستماعكم ، أعاد الله علينا ذكرى الميلاد بخير ما  
تعود الأعياد . . .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

٨ ربيع أول ١٣٨٩

٢٤ مايو ١٩٦٩